المكاتبات والرسائل النبوية
خصائصها ومقاصدها

إعداد

د/ محمود محمد الحمادي

محاضر في كلية التقنية العليا

إمارة الشارقة دولة الإمارات

المكاتبات والرسائل النبوية خصائصها ومقاصدها

محمود محمد الحمادي

محاضر في كلية التقنية العليا ، إمارة الشارقة دولة الإمارات

البريد الإلكتروني : hammadirak3@hotmail.com

الملخص :

إن للمكاتبات والرسائل النبوية أهمية بالغة في توطيد العلاقات الدولية، وأن مبادئ الإسلام قد أقرت حقوقاً كثيرة منها:(حرية العقيدة والعبادة ، المعاملة الحسنة ، حرية التنقل ، الحصانة الدبلوماسية) وأثبتت مكاتبات النبي – صلّى الله عليه وسلّم – لملوك وأمراء الدول المجاورة للمدينة المنورة عالمية الرسالة المحمدية ، وامتيازها بمنهجية فريدة في التعامل مع الدول والشعوب غير المسلمة ، وأن من أهم المقاصد من وراء إرساله – صلّى الله عليه وسلّم – إلى الملوك والأمراء : تحقيق الاعتراف بالدولة المسلمة، وتوقيع الصلح والمعاهدات، والتعايش السلمي مع الآخرين ، وأنه لابد من توفر صفات عديدة منها : الإيمان المطلَق بالقضية ، العلم والحكمة ، والشجاعة والصبر ، الدهاء واللباقة وحضور البديهة ، المظهر اللائق وجمال الشكل ، والكفاءة ، وطرح مساقات وتخصصات في الكليات والجامعات الشرعية تعنى بإعداد باحثين في المقارنات الشرعية والقانونية المعاصرة ، وإبراز المواقف التي سبق بها الإسلام القوانين الدولية؛ وذلك لبيان التميز الحضاري للإسلام والمسلمين، وأسبقيتهم في إرساء مبادئ العلاقات الدولية.

الكلمات المفتاحية: مشروعية عمل السفير – حقوق السفير في الإسلام – مقاصد إرسال السفراء – مواصفات السفير.

Correspondence and prophetic messages, their characteristics and purposes

Mahmoud Mohammed Al Hammadi
Lecturer at the Higher College of Technology, Sharjah, UAE
Email: hammadirak3@hotmail.com

Abstract :
The correspondences and messages of the Prophet are of great importance in consolidating international relations, and that the principles of Islam have recognized many rights, including: (freedom of belief and worship, good treatment, freedom of movement, diplomatic immunity) The Muhammadan message, and its distinction with a unique methodology in dealing with non-Muslim countries and peoples, and that one of the most important purposes behind sending it - may God bless him and grant him peace - to kings and princes: achieving recognition of the Muslim state, signing peace and treaties, and peaceful coexistence with others, and that there must be qualities Many of them: absolute belief in the cause, knowledge and wisdom, courage and patience, shrewdness, tact and presence of intuition, decent appearance and beauty of form, competence, offering courses and specializations in Sharia colleges and universities concerned with preparing researchers in contemporary Sharia and legal comparisons, and highlighting the positions in which Islam preceded international laws; This is to demonstrate the civilizational distinction of Islam and Muslims, and their primacy in establishing the principles of international relations.

Keywords: The Legitimacy Of The Ambassador's Work - The Rights Of The Ambassador In Islam - The Purposes Of Sending Ambassadors - The Specifications Of The Ambassador.

مقدمة

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام ، وجعله متفرّداً على غيره بمبادئه العظام ، والصلاة والسّلام على خير الأنام ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان ، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فهذه دراسة أعددتها حول موضوع " المكاتبات والرسائل النبوية من خلال السفراء المسلمين وما تتضمنه من خصائص ومقاصد " ، و كان الدافع لاختياري هذا العنوان ما يكتسبه هذا الموضوع من أهمية بالغة تتمثل فيما يأتي :

أهمية الموضوع :

١. أنه يتسم بالمتعة والتشويق لاتصاله بسيرة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – التي ينبغي لكل مسلم أن يطلع عليها ، وينهل من معينها .
٢. أنه يبرز بعض المبادئ والقواعد الدولية التي أرساها الإسلام في عمل السفراء سابقاً بها القوانين الدولية المعاصرة .
٣. التعرف على بعض القوانين والاتفاقيات الدولية الحديثة الخاصة بتنظيم عمل السفراء والسلك الدبلوماسي .

خطة البحث :

من أجل أن تظهر هذه الدراسة بشكلٍ يتناسب مع البحوث العلمية ، ويتوافق مع المنهج العلمي قمت بتقسيمها إلى: مقدمة ، وعرض، وخاتمة ، وفهرسة عامَّة .

❖ **المقدمة : وتحتوي على :**

١. أهمية الموضوع والدراسة (باختصار) .

٢. خطة البحث .

❖ **العرض والمحتوى : ويشتمل على مبحثين :**

المبحث الأول : مفهوم السفير ، ومشروعيته ، وحقوقه ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: تعريف السفير لغة واصطلاحاً .

المطلب الثاني: مشروعية عمل السفير .

المطلب الثالث: حقوق السفير في الإسلام .

المبحث الثاني : (المكاتبات والرسائل النبوية) دلالاتها ومقاصدها ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : المكاتبات والرسائل النبوية (المذكرات السياسية) .

المطلب الثاني: مقاصد إرسال السفراء .

المطلب الثالث: مواصفات السفير.

❖ **الخاتمة :** وتشتمل على خلاصة البحث ، والنَّتائج التي تمَّ الوصول إليها، بالإضافة إلى بعض التَّوصيات المقترحة.

❖ **الفهارس :** وتشمل فهارس المصادر والمراجع ، وفهارس الموضوعات .

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى كل من أعان وسهلّ لي كتابة هذا البحث ،وأتمنّى أن أكون قد وفقت في عرض الموضوع بأسلوب علميٍّ ميسّر ؛ فإن كنت قد أصبت فذلك توفيق من الله – تعالى – ؛ فله الحمد – سبحانه – على ما تفضَّل به مِنْ تمام هذه النِّعمة ، وأسأله جلَّ جلاله ، وعَظُمَ نَوالُه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتجاوز عنّي ما حصل من زلَلٍ أو تقصير ، وأن يوفقني ، وزملائي ، وأساتذتي الكرام ، وكل قارئٍ لهذا البحث إلى كلِّ خيرٍ ورُشدٍ إنَّه خير مسئول ، وأكرم مأمول .

المبحث الأول : مفهوم السفير ، ومشروعيته ، وحقوقه

في هذا المبحث سأتناول عدة أمور من خلال ثلاثة مطالب ؛ سنتعرف من خلالها على مدلول مصطلح السفير في اللغة والاصطلاح ، وأدلة مشروعيته ، والحقوق التي كفلها الإسلام للسفراء .

المطلب الأول: تعريف (السفير) لغة واصطلاحاً :

أولاً : تعريف (السفير) لغة [1] :

(السَّفِيرُ) الرَّسُولُ الْمُصْلِحُ بَيْنَ الْقَوْمِ ، وَالْجَمْعُ (سُفَرَاءُ) كَفَقِيهٍ وَفُقَهَاءَ، وَ (سَفَرَ) بَيْنَ الْقَوْمِ يَسْفِرُ بِكَسْرِ الْفَاءِ (سِفَارَةً) بِالْكَسْرِ أَيْ أَصْلَحَ ، فسمي السفير بذلك لِأَنَّهُ أَزَالَ مَا كَانَ هُنَاكَ مِنْ عَدَاوَةٍ وَخِلَافٍ .

ومنه أطلق المصطلح على الملائكة ؛ فالسَّفَرَةُ: كَتَبَة الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُحْصُونَ الأَعمال؛ سمّوا بذلك لأَنهم يَسْفِرُونَ بَيْنَ الله وبين أَنبيائه ؛ ولأَنهم يَنْزِلُونَ بِوَحْيِ اللَّهِ وبإِذنه وَمَا يَقَعُ بِهِ الصَّلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَشُبِّهُوا بالسُّفَرَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ فَيَصْلُحُ شأْنهما .

و(السفارة) عمل السفير ومقامه .

١- ينظر : معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس القزويني الرازي، تح : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ٨٢/٣ ، و مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي ، تح: يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية - الدار النموذجية ، بيروت - صيدا ، ط ٥ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، ص ١٤٨ ، و لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر - بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ ، ٣٧٠/٤ ، والمعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) ، دار الدعوة ، القاهرة ،٤٣٣/١ .

ثانياً : تعريف (السفير) اصطلاحاً :

السفير في الاصطلاح السياسي المعاصر هو " الذي يهتم بعلاقات دولته الخارجية ، ويسعى لتنميتها باتصالاته المباشرة مع وزير خارجية الدولة المعتمد لديها " [١] .

أو هو الموظف الدبلوماسي الأعلى الذي يترأس سفارة لتمثيل بلاده في الخارج .

خلاصة:

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي :

من خلال ما سبق يتبين لنا أن المعنى اللغوي للسفير يراد به الإصلاح ؛ وهو ما قد يرتبط بالمعنى الاصطلاحي ؛ إذ هو ما يقوم به السفراء من توطيد العلاقات بين بلدانهم والبلاد التي أرسلوا إليها ، كما أنهم يعملون على تنقية الأجواء بين البلدين ، وإزالة كل ما قد يشوب العلاقات الثنائية بين بلدانهم والبلدان الأخرى التي يؤدون مهامهم فيها .

العلاقة بين معنى السفارة والرسالة :

مما سبق يتبين لنا كذلك أن هناك التقاء بين معنى (السفير) في اللغة وبين الرسل والملائكة ؛ وذلك في الإصلاح للأقوام ؛ بل وللناس عامة ؛ ولذلك غالباً ما نجد أنه يجمع بين لفظ الرسل والسفراء .

١- راجع: السياسة الخارجية في السنة النبوية ، ميساء روابدة وعزيزة عليوة ، بحث محكم في مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والقانونية ، المجلد ١٢ ، العدد ٢ ، ص ١٠٠ .

المطلب الثاني : مشروعية عمل السفير :

يعدّ تبادل الرسل والسفراء من أهم الأدوات والوسائل التي تعتمد عليها الدول في إدارتها لعلاقاتها الخارجية وسعيها لتنظيمها ، وإن المتتبع ليجد أن السيرة النبوية زاخرة بالمواقف التي تدل على تأصيل هذا المبدأ وشرعيته ؛ ومن تلك المواقف :

أولاً : عند بزوغ فجر الإسلام ، وبداية ظهوره ، وتحديداً بعد بيعة العقبة الأولى التي كانت بين النبي – صلّى الله عليه وسلّم – وبين مجموعة من أهل يثرب ، الذين اعتنقوا الإسلام ، قرر – عليه الصلاة والسلام – إرسال شخص إلى يثرب ؛ ليكون أول سفير في الإسلام ، فاختار لتلك المهمة الجسيمة الصحابي الجليل مصعب بن عمير ، ولم تكن مهمة هذا السفير مهمة سهلة ، فلم تقتصر مهمته على نقل الرسائل النبوية إلى أهل يثرب ، بل كانت له مهام أخرى جليلة ، إذ كان عليه القيام بمهام دبلوماسية تتمثل في تهيئة الأجواء لبناء مجتمع يقوم على قيم ومبادئ هذا الدين الجديد ، فكان عليه القيام بمهام دعوية لدين الإسلام ، بالإضافة إلى مهام تربوية وتعليمية لأفراد المجتمع الذي ذهب إليه .

وعند تتبع سيرة مصعب بن عمير وصفاته نستطيع التعرف على أسباب اختيار الرسول – صلّى الله عليه وسلّم– له ؛ فقد كان من أعلم الصحابة ؛ فكان يحفظ كل ما نزل من القرآن ، وكان من أشراف قومه ؛ إذ كان من بني عبد الدار الذين يحملون مفتاح الكعبة ويتوارثونه كابرًا عن كابر ؛ وعليه فسيكون خير قدوة للسادة والأغنياء الذين يريدون الدخول في هذا الدين ، وربما ترددوا خوفاً على جاههم ومالهم ، وقد بلغ مصعب بن عمير – رضي الله عنه – حينها من النضج ما يمكنه من القيام بالمهمة على أكمل وجه ؛ فقد كان عمره خمساً وثلاثين سنة ، كما أنه قد هاجر الهجرتين إلى الحبشة ؛ مما يعني قدرته على التضحية والصبر على التغرب

عن الأوطان ، بالإضافة إلى ما يمتلكه من صفات خُلقية تؤهله للقيام بهذه المهمة الجليلة ؛ فقد كان يتصف باللباقة والكياسة والهدوء والصبر وسعة الصدر والحلم ؛ فكان لحسن اختيار النبي– صلّى الله عليه وسلّم – لأول سفير يرسله أثره البالغ في تحقيق أهداف المهمة التي أرسل من أجلها .

ثانياً: يوم الحديبية : أراد النبي – صلّى الله عليه وسلّم – أن يرسل عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– إلا أنه عدل عن قراره عندما تبيّن له شدة عمر، وعداوته لقريش، وأن قبيلته من بني عديّ لن يقوموا بحمايته ؛ فاختار – صلّى الله عليه وسلّم – عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ، لما علم من علوّ مكانته في قريش؛ إذ هو من بني أمية؛ وهي قبيلة قوية عزيزة وشريفة، وإليها ينتسب أبو سفيان زعيم قريش آنذاك، وقد قام عثمان – رضي الله عنه – بالمهمة الموكلة إليه على أكمل وجه ؛ فانطلق حتى أتى أبا سفيان و عظماء قريش فبلغهم رسالة رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – ، ولمكانته وشرفه عندهم سمحوا له بالطواف بالبيت ، فأبى حتى يطوف الرسول صلّى الله عليه وسلّم .

ثالثاً: بعد صلح الحديبية : أبرم النبي – صلّى الله عليه وسلّم – صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة مع أهل مكة ؛ وقد تضمن الصلح هدنة تمتد إلى عشر سنوات ، فكان أن اغتنم النبي – صلّى الله عليه وسلّم – تلك الهدنة بالإقدام على خطوة استراتيجية مهمة ، تؤدي إلى توطيد العلاقات الدولية مع الدول والأقاليم المجاورة للمدينة المنورة ؛ فقام بإرسال رسائل إلى ملوك وأمراء تلك الدول والأقاليم ، ضمّنها دعوته لهم للدخول في الإسلام ، و تحمل مسئوليتهم ، ومسئولية شعوبهم أيضاً.

ولمعرفة ما تضمنته تلك الرسائل ، سأورد نموذجين من رسائله – صلّى الله عليه وسلّم – إلى ملكي أكبر دولتين في ذلك الوقت (فارس ،

والروم) ، وسيلاحظ القارئ أن هناك قاسماً مشتركاً في لغة الخطاب بين هذه الرسائل :

النموذج الأول : رسالة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – إلى هرقل عظيم الروم: عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : أنّ النبي – صلّى الله عليه وسلّم – كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وبعث بكتابه إليه دِحية الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ليدفعه إلى قيصر، فإذا فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسْلِم تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنّما عليك إثم الأريسيِّين، ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤] " [1] .

النموذج الثاني : رسالته – صلّى الله عليه وسلّم – إلى كسرى ملك الفرس ؛ فقد جاء فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك

١- (أخرجه البخاري في صحيحه) راجع : صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ، كتاب (بدء الوحي) ، باب (كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟) ، حديث رقم (٧) ، ٨/١ ، ومعنى قوله : " إثم الأريسيين ": أي إثم استمرارهم على الباطل والكفر اتباعًا لك . والمراد بالأريسيين: الأتباع من أهل مملكته ، وهي في الأصل جمع أريسي وهو الحرّاث والفلاح.

بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين، فأسْلِمِ تَسْلَم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك " [١].

ولأهمية هذه الرسائل والمكاتبات في تكوين المبادئ الأساسية التي أرساها النبي – صلّى الله عليه وسلّم – لعمل السفراء في الإسلام ارتأيت أن أتناولها بشيء من التفصيل في مبحث مستقل يتبع هذا المبحث .

❁❁❁❁

المطلب الثالث : حقوق السفير في الإسلام [٢] :

إن المتابع للقوانين الحديثة يجدها تدعو إلى احترام الرسل والسفراء ، وإعطاءهم حقوقهم كاملة ، إلا أنّ من يقرأ سيرة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – ، والسياسة التي كان يسير عليها في معاملاته الخارجية يجده النموذج الحيّ في تطبيق هذه الحقوق ؛ فقد أرسى– صلّى الله عليه وسلّم – حقوقاً عديدة للسفراء كان من أبرزها:

١. **حرية العقيدة والعبادة** : فلم يلزم النبي – صلّى الله عليه وسلّم – الرُّسل والسفراء باعتناق الدين الإسلامي ؛ بل جعل لهم الحق في ممارسة شعائرهم الدينية بشرط عدم تعارضها مع نظام الدولة ، مع أن حرية العقيدة لا تمنع من أحقية الدولة بدعوة الرُّسل والسفراء إلى الإسلام مع ترك الحرية لهم بقبول الدعوة أو رفضها ، ولنا في فعله – صلّى الله عليه وسلّم – أسوة حسنة ؛ فقد روى الإمام أحمد عن أبي رافع عن أبيه عن جده أبي رافع قال: " بَعَثَنِي قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١– ينظر : الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، دار الهلال – بيروت ، ط ١ ، ص ٣٢٤ .

٢– ينظر: السياسة الخارجية في السنة النبوية ، مرجع سابق ، ص ١٠٢ –١٠٣ .

– وَقَعَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: " إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ ، وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الْآنَ ، فَارْجِعْ " [1] .

فلم يجبر النبي –صلّى الله عليه وسلّم– سفير قريش على الدخول في الإسلام، ومع ذلك عندما أسلم قَبِل إسلامه ، ورفض أن يخيس بالعهد.

ونلاحظ أن القانون الدولي لم يتعرض لمسألة حرية العقيدة، ولم تنص عليها اتفاقية (فيينا) للعلاقات الدبلوماسية، ولم يجد القانونيون الذين أشرفوا على وضع الاتفاقية أيّ مبرر لإيرادها، بحجة أنّ حصانة أماكن البعثة الدبلوماسية تغطي جميع هذه الجوانب وتضمن إقامة أيّ طقوس أو احتفالات تقيمها البعثة في داخلها [2].

وعليه إن بقي السفير على دينه فله الحق في أن يقيم شعائره الدينية في مكان سكنه أو في مبنى السفارة.

٢. **المعاملة الحسنة:** كان الرسول – صلّى الله عليه وسلّم – يستقبل رسل المشركين الذين يحملون ما بعثوا به إليه ويعاملهم معاملة حسنة، فعن سعيد بن أبي راشد – رضي الله عنه – أنّ النبي – صلّى الله عليه وسلّم – قال لرسول قيصر : " إنك رسول قوم وإن لك حقاً ولكن جئتنا

١– (أخرجه أحمد في مسنده) ، راجع : مسند أحمد ، أحمد بن محمد بن حنبل ، تح : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون بإشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م ، حديث رقم (٢٣٨٥٧) ، ٢٨٢/٣٩ ، وقال المحققون : (حديث صحيح) ، و قوله: " لا أَخِيس بالعهد " أي: لا أنقضه ، و "البُرُد" بضمَّتين، جمع بريد، بمعنى الرسول ، أي: لا أحبس الرسل الواردين عليَّ .

٢– أحكام الرسل والسفراء في الفقه الإسلامي ، جمال نجم ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح ، نابلس ، ص ٥٠ .

ونحن مُرملون – أي نفذ زادنا – ، فقال عثمان بن عفان أنا أكسوه حلّة صفورية ، وقال رجل من الأنصار عليّ ضيافته " [١] .

٣. **حرية التنقل** : وهو مبدأ واضح في سيرة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – ؛ إذ منح للسفير حرية التنقل والاتصال بدولته، ففي صلح الحديبية كان – عليه الصلاة والسلام – يسمح لسفراء قريش أن يعودوا إليها ليتلقوا التعليمات منهم، ونقل ما تمّ من التفاوض بينهم وبين النبي– صلّى الله عليه وسلّم –، وقد أخذت الدول الحديثة بحرية السفير، أو المبعوث في الاتصال بدولته ، فنصت المادة (٢٧) من اتفاقية (فيينا) [٢] على أن تسمح الدولة للبعثة الدبلوماسية المعتمدة بحرية الاتصال من أجل كافة الأغراض الرسمية وتحمي هذه الحرية، وللبعثة في اتصالها بحكومة الدولة وكذا بالبعثات الأخرى والقنصليات التابعة لها أينما وجدت، وأن تستخدم كل وسائل الاتصال الملائمة، ومن بينها

١– أخرجه أحمد في مسنده ، راجع : مسند أحمد ، مرجع سابق ، حديث رقم (١٦٦٩٤) ، ٢٤٤/٢٧ ، والمرمل : الذى نفد زاده ، والصفورية : نسبة إلى صفورية وهى بلدة من نواحي الأردن بالشام .

٢– اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية هي معاهدة دولية وُقعت عام ١٩٦١م ، وتحدد إطاراً للعلاقات الدبلوماسية بين الدول المستقلة، وتحدد امتيازات البعثة الدبلوماسية التي تمكن الدبلوماسيين من أداء وظيفتهم دون خوف من الإكراه أو المضايقات من قبل البلد المضيف، وتشكل الأساس القانوني للحصانة الدبلوماسية ، وتعتبر موادها =حجر الزاوية في العلاقات الدولية الحديثة . اعتبارا من أبريل ٢٠١٤ تم التصديق عليها من قبل ١٩٠ دولة ، راجع : موسوعة ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية العالمية .

الرسائل الدبلوماسية، والرسائل الاصطلاحية، أو المحرّرة، أو المشفرة " [1] .

٤. **الحماية والحصانة الدبلوماسية** : أرسى النبي – صلّى الله عليه وسلّم– مبدأ تأمين الرُّسل والسفراء والمبعوثين، تقديراً منه للدور الذي يقوم به هؤلاء، ومساعدة لهم في أداء عملهم؛ لأنهم لا يستطيعون أن يؤدوا مهمتهم وأعمالهم إلا إذا توافرت لهم الحصانة والرعاية الكاملة ، كما قررّ حُرمة قتل السفراء ، وجعل ذلك غدراً لا يجوز للمسلمين أن يتصفوا به بحال.

ولذا فقد حظي السفراء والرُّسل في عهد النبي – صلّى الله عليه وسلّم– ومن جاء بعده من الخلفاء بحماية ورعاية لم يحظ بها أقرانهم في الدول الأخرى قبل ذلك العصر؛ ومما يستشهد به في هذا المجال ما رواه الإمام أحمد عن نعيم بن مسعود قال: "سمعت رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب قال للرسولين: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– : لولا أنّ الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما " [2] .

١– قواعد القانون الدولي ، جعفر عبدالسلام ، القاهرة ، مكتبة السلام العالمي ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م ، ص ٤٧ ، والوجيز في القانون الدولي ، محمد حافظ غانم ، مصر ، دار النهضة العربية ، ١٣٩٩ هـ ، ص ٣٩٣ .

٢– (أخرجه أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه) راجع : مسند أحمد ، مرجع سابق ، حديث رقم (١٥٩٨٩) ، ٣٦٦/٢٥ ، وقد حكم عليه محقق المسند بالصحة بطرقه و شواهده ، والمستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري ، تح : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م ، حديث رقم (٤٣٧٧) ، ٥٤/٣ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

والحديث يدّل دلالة واضحة على تحريم قتل الرَّسل والسفراء المبعوثين من غير المسلمين ، وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة وليّ الأمر .

والسبب في منع ذلك كما علّل العلماء هو أن الحاجة تدعو إلى ذلك ؛ فإنا لو قتلنا رسلهم لقتلوا رسلنا فتفوت مصلحة المراسلة ؛ وعليه لن يؤدوا مهمتهم التي بعثوا من أجلها [١].

ومن هنا يتبين أن للإسلام قدم السبق في إرساء هذا المبدأ الهام في الدبلوماسية والعلاقات الدولية سابقاً القوانين الحديثة في ذلك، والتي بدورها أكّدت على هذه المبادئ الحضارية ؛ فمما جاء في اتفاقية (فيينا) للعلاقات الدبلوماسية " تكون ذات المبعوث الدبلوماسي مصونة ، ولا يجوز إخضاعه لأي إجراء من إجراءات القبض أو الحجز، وعلى الدولة المعتمد لديها أن تعامله بالاحترام الواجب له، وأن تتخذ كافة الوسائل لمنع أيّ اعتداء على شخصه، أو على حريته ، أو على كرامته" [٢] .

❁❁❁❁

١٧- ينظر : المغني ، عبد الله بن أحمد بن قدامة ، دار الكتاب العربي – بيروت ، بدون طبعة ، ٤٣٦/١٠ .

٢- راجع نص المادة (٢٩) من اتفاقية فينا منشورة على الشبكة العنكبوتية العالمية .

المبحث الثاني : (المكاتبات والرسائل النبوية) دلالاتها ومقاصدها

في هذا المبحث سنتناول مضمون الكتب والرسائل التي أرسلها النبي – صلّى الله عليه وسلم – إلى الملوك والأمراء بشيء من التحليل والتفصيل، مع محاولة استخلاص أهم المقاصد التي كانت من وراء تلك الرسائل، وأهم الصفات التي ينبغي توافرها في السفير؛ وذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : المكاتبات والرسائل (المذكرات السياسية) [1]

بعد أن توطدت دعائم الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، وتكامل نظامها ، كان التعريف بالإسلام، والدعوة إليه، والاعتراف به هو الهدف الأول الذي سعى إليه النبي – صلّى الله عليه وسلّم – من خلال رسائل ومكاتبات (المذكرات الدبلوماسية) أرسلها إلى الملوك والأمراء ورؤساء القبائل؛ تحقيقاً لأمر الله – تعالى – القائل في كتابه العزيز: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، وإعلاناً لعالمية دعوة الإسلام؛ التي ينبغي أن تبلغ الآفاق، ولا تنحصر في قومٍ، أو شعب .

١.كاتب النبي – صلّى الله عليه وسلّم – الملوك والأمراء ورؤساء القبائل داخل الجزيرة العربية وخارجها؛ فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : « أَنَّ نَبِيَّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَتَبَ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى » [2] .

١– ينظر: السياسة الخارجية في السنة النبوية ، مرجع سابق ، ص ١٠٩–١١٢ .

٢– (أخرجه مسلم في صحيحه) راجع : صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، كتاب (الجهاد =

فأرسل – صلوات الله عليه – ستة سفراء في غداة واحدة، وأتبعهم بآخرين، فكانت رسائله شاملة لجميع الأمم المحيطة بالعرب من جميع الجهات، وشاملة لجميع عظماء العرب؛ فكان ممن أرسلهم :

١- دِحية بن خليفة الكلبي – رضي الله عنه – إلى قيصرَ ملكِ الروم.

٢- عبدالله بن حذافة السهمي – رضي الله عنه – إلى كسرى ملك الفرس.

٣- عمرو بن أمية الضَّمري – رضي الله عنه – إلى النجاشي ملك الحبشة.

٤- حاطب بن أبي بَلتعة – رضي الله عنه – إلى المقوقس عظيم القبط .

٥- عمرو بن العاص – رضي الله عنه – إلى جَيْفَرٍ وعَبْد ابنَي الجُلَنْدَي الأَزْديَّيْنِ، ملِكَي عمان.

٦- جَرير بن عبدالله الْبَجَلي – رضي الله عنه – إلى ذي الكَلاعِ الحِمْيَري وذي عمرٍو.

٧- العَلَاء بن الحَضْرَمِيِّ – رضي الله عنه – إلى الْمُنذِرِ بنِ سَاوَى العَبْدِي مَلِكِ البَحْرَين.

٨- سليط بن عمرو – رضي الله عنه – إلى هوذة بن علي ملك اليمامة، وإلى ثُمامة بن أُثال، الحنفيين.

٩- الحارث بن عمير الأزدي – رضي الله عنه – إلى عظيم بُصْرَى، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر.

ومن استقراء هذه البعثات ندرك أنها توجهت إلى جميع ذوي السلطة والسيادة في العالم آنذاك؛ ولهذا قال أنس بن مالك كما تقدم في الحديث إن

=

والسير) ، باب (كُتُبِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى مُلُوكِ الْكُفَّارِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ) ، حديث رقم (١٧٧٤) ، ١٣٩٧/٣ .

نبي الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كتب إلى كسرى ، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبّار يدعوهم إلى الله تعالى ..." .

٢. تميزت تلك المكاتبات والرسائل باللباقة في الكتابة واللغة، وحسن المرونة، والإيجاز، وملائمة الخطاب لمن أُرسلت إليه، ومن المعروف أن اللغة (الدبلوماسية) تتميز بالدقة، والاختصار، والوضوح ؛ إذ كل عبارة يمكن أن تفسّر تفسيراً مغايراً ؛ لذا كانت الدقة في اللغة الدبلوماسية من الأساسات الضرورية.

٣.اتسمت كتابات النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الدالة بأسلوبها ومحتواها على حكمة مُرسلها ويتبين ذلك مما يأتي:

أ. بدأت تلك المكاتبات والرسائل بأسلوب قائم على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة عملاً بقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولذا لم يجد المقوقس عظيم القبط في مصر من كلمة يعبر بها عند استلامه لكتاب رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – الذي حمله إليه حاطب بن أبي بلتعة – رضي الله عنه – إلا أن قال : " أحسنت أنت حكيمٌ من عند حكيم " .

ب. سلوك النبي – صلّى الله عليه وسلّم – في كتبه تلك أدب النبوة، فطرق باب الملوك والرؤساء، وأرسل إليهم أولئك المبعوثين الدبلوماسيين بكلمة السلام (أسلِم تسلَم)، ولم يحاول أن يهيّج أحداً منهم؛ فكانت كلمته القرآنية ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤]

ج. مخاطبة الملوك والرؤساء بصفاتهم التي منحتها شعوبهم لهم دون التقليل من شأنهم أو الحطّ من مكانتهم، إلا أنه وفي الوقت نفسه حمّلهم تبعات رفض دعوة الإسلام، وعدم فتح الطريق أمام رسله للتعريف به؛ لمكانتهم في الاهتداء والإضلال لمن يحكمونهم ويتولون أمرهم، واتضح ذلك جلياً في رسالته إلى هرقل عظيم الروم حينما قال له: " فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ " [١] .

فتبيّن تلك الرسائل والمكاتبات النبوية أن دين الإسلام هو دين حضارة حيث جعل السلام فضيلة يسعى لها، وشعاراً للدولة الإسلامية في علاقاتها الدبلوماسية.

د. قبول الرسول – صلّى الله عليه وسلّم – اتخاذ خاتماً تماشياً مع ما تعارف عليه الملوك والأمراء عند المكاتبات؛ وذلك حينما علم أنّ العجم لا يقبلوا كتاباً، ولا يحترمون رسالة مرسلة إليهم إلا إذا كانت مختومة؛ فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: " لَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الرُّومِ، قِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لاَ يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا، « فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِهِ فِي يَدِهِ، وَنَقَشَ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » [٢] .

١- (أخرجه البخاري في صحيحه) راجع : صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ، كتاب (بدء الوحي) ، باب (كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟) ، حديث رقم (٧) ، ١/٨ .

٢- (أخرجه البخاري في صحيحه) راجع : صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب (الجهاد والسير) ، باب (دَعْوَةِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى) ، حديث رقم (٢٩٣٨) ، ٤/٤٥ .

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على التطبيق الإداري العملي للدبلوماسية في المراسلات.

❁❁❁❁

المطلب الثاني : مقاصد إرسال السفراء [1]

هناك وسائل تمارسها الدول للتعبير عن إرادتها للاعتراف القانوني بكيان ما، منها:

أ. أن يتم من خلال مذكرة يرسلها رأس الحكم في دولة إلى نظيره في الكيان الجديد.

ب. أن يتم الاعتراف ضمنياً، وذلك من خلال الدخول في إجراءات إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الكيان الجديد، أو من خلال إبرام الاتفاقيات والمعاهدات.

ج. أن يتم عن طريق تبادل رسائل التهنئة، وتقديم أوراق اعتماد جديدة لمبعوث الدولة، وذلك في حالات قيام تغيير في شكل نظام الحكم، إذا كان التغيير يقتضي الاعتراف بالوضع الجديد.

فمما سبق يتبين لنا أن تبادل السفراء والمبعوثين هو أسلوب تستخدمه الدول للتعبير عن مقصدها في الاعتراف القانوني بدولة أو كيان جديد، فمن المقاصد المهمة التي سعى لها النبي – صلّى الله عليه وسلّم – من إرسال السفراء والمبعوثين ما يأتي:

أولاً: مقصد تحقيق الاعتراف بالدولة المسلمة : فإن المتتبع للسفارات النبوية يرى أن من المقاصد التي كان النبي – صلّى الله عليه وسلّم – يتوخاها في سفاراته إلى الدول القائمة في زمانه ، هو تحقيق

١- بتصرف من بحث (من مقاصد سفارة النبي صلى الله عليه وسلم) ، د. أحمد غالب الخطيب ، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية العالمية .

الاعتراف المتبادل بين الدولة الإسلامية بقيادة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – وبين غيرها من الدول؛ فكان إرسال السفراء إلى الدول القائمة في زمانه، ومخاطبة زعمائهم بما هم عليه من الرئاسة والتسلط على أقوامهم (فخاطب هرقل بعظيم الروم، وكذا المقوقس بعظيم القبط، وكذا كسرى بعظيم فارس) كل هذا يدل على نوع اعتراف من النبي – صلّى الله عليه وسلّم – بحقيقة قائمة في زمانه؛ فكانت سفارته إليهم دليلاً على هذا الاعتراف؛ بل إن مجرد بعث السفير، ثم قبوله في الدولة المبعوث إليها يعدّ دليلاً على هذا المقصد وإن لم يصرح به.

وقد حصل للنبي – صلّى الله عليه وسلّم – من خلال تلك السفارات بعضاً مما أراد ، فقد اعترفت دولة الروم، وكذا دولة القبط بدولة الإسلام الفتيّة، بينما رفضت دولة فارس هذه الفكرة، وعبرت عن هذا الرفض بتمزيق كسرى للكتاب النبوي، وعدم احترام السفير.

ومما يدل على تحقيق الاعتراف من قبل دولتي الروم والقبط بدولة الإسلام بقيادة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – ما يأتي:

أ. تعظيم الكتاب المبعوث مع السفير من قبل النبي – صلّى الله عليه وسلّم – ، فقد نقل السهيلي:" أنه بلغه أنَّ هرقل وضع الكتاب في قصبةٍ من ذهب تعظيماً له، وأن الفرنجة كانوا يتوارثونه " . [١]

ب. إرسال كل من هرقل والمقوقس إلى النبي– صلّى الله عليه وسلّم – بسفراء يحملون الخطابات الودية والهدايا كإشارة لقبول سفارة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – ، واعترافاً منهم بدولة الإسلام.

١٩– ينظر : السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) ، علي بن إبراهيم الحلبي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٧هـ ، ٣٤٤/٣ .

أما هرقل : فقد ورد أنه أهدى لرسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – هدية فقبل رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – هديته، وفرّقها على المسلمين[١] .

وأما المقوقس عظيم القبط فقد أجاب بأحسن جواب، وأتحف النبي – صلّى الله عليه وسلّم – بالهدايا، وقد جاء جوابه على هذا النحو: (لمحمد بن عبد الله من المقوقس: سلام، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسلك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوةٍ، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام) [٢] .

وجه الاستدلال مما تقدم:

أ. أنّ السفارة وسيلة لتحقيق الاعتراف بالدولة الإسلامية، وأنّ هذا المقصد مشروع ومطلوب، فقد عبر النبي – صلّى الله عليه وسلّم – عن سعادته بجواب هرقل والمقوقس وإن لم يسلما، تمثل ذلك بوصفه لهرقل بأن ملكه يثبت، ووصايته بعد ذلك بأهل مصر، بقوله: " إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا ، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً " [٣] .

ب. كما عبر عن استيائه وغضبه من كسرى بدعائه عليه بتمزيق ملكه .

١٩- ينظر : سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، تح: عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م ، ٤٥٩/٥ .

٢- ينظر : الرحيق المختوم ، مرجع سابق ، ص ٣٢٣ .

٣- أخرجه مسلم في صحيحه ، راجع : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، كتاب (فضائل الصحابة) ، باب (الوصية بأهل مصر) ، حديث رقم (٦٥٨٥) ، ١٩٠/٧ .

ولو كان المقصد الوحيد المطلوب من السفارة النبوية هو دخول هؤلاء في الإسلام، لدعا النبي – صلّى الله عليه وسلّم – عليهم جميعاً ؛ لأنهم في الكفر سواء، إلا أنه لم يفعل ذلك.

ثانياً: مقصد عقد الصلح والمعاهدات : وهو من مقاصد السفارة المعتبرة بدليل فعل النبي – صلّى الله عليه وسلّم – في سفارته لأهل قريش قبيل صلح الحديبية، وفي سفاراتهم له، الأمر الذي تمخض عنه عقد معاهدة الصلح؛ فعن سلمة بن الأكوع – رضي الله عنه – قال : " ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا الصُّلْحَ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ، وَاصْطَلَحْنَا " [١] .

وتحقيق السلام مع الآخر من خلال إجراء الموادعة والمصالحة يتم من خلال السفارة، على مرحلتين:

المرحلة الأولى: بعث السفراء في مهمة التفاوض مع الدولة الأخرى؛ لأجل إجراء الصلح خاصة، وهؤلاء السفراء ينطبق عليهم ما ينطبق على البعثات الخاصة، بسبب طبيعة المهمة المؤقتة التي يقومون بها.

وتستمد هذه المرحلة مشروعيتها من حديث سلمة بن الأكوع المتقدم، ومن النصوص الشرعية الكثيرة التي تدعو إلى الصلح مع الأعداء لأجل الدعوة الإسلامية، وهي معروفة مشهورة تغني معرفتها عن ذكرها في هذه المقام .

أما المرحلة الثانية: فإذا تمهدت سبل الصلح، وتم الاتفاق على إجراء معاهدة سلام بين الطرفين يمكن القيام بممارسة التمثيل الدبلوماسي، وإرسال السفراء والبعثات الدبلوماسية الدائمة، و إقامة علاقات ودية فيما بينهما.

١- (أخرجه مسلم في صحيحه) راجع : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، كتاب (الجهاد) ، باب (غزوة ذي قَرَد وغيرها) ، حديث رقم (١٨٠٧) ، ٣/ ١٤٣٣.

وتستمد هذه المرحلة مشروعيتها من فعله – صلّى الله عليه وسلّم – في إجراء صلح الحديبية، قال الشافعي رحمه الله: " قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَمَا كَانَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ أَعْظَمَ مِنْهُ؛ كَانَتْ الْحَرْبُ قَدْ أَحْرَجَتْ النَّاسَ ، فَلَمَّا أَمِنُوا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِالْإِسْلَامِ أَحَدٌ يَعْقِلُ إلَّا قَبِلَهُ؛ فَلَقَدْ أَسْلَمَ فِي سِنِينَ مِنْ تِلْكَ الْهُدْنَةِ أَكْثَرُ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَبْلَ ذَلِكَ " [1] .

ثالثاً: مقصد تحقيق التعايش السلمي: من المقاصد الأساسية التي كانت تسعى إلى تحقيقها سفارات النبي – صلّى الله عليه وسلّم – تحقيق مبدأ التعايش السلمي بين الدولة المسلمة والدول المجاورة وفق مبادئ وأحكام الشرع الحنيف .

ولقد استقر الرأي عند أهل القانون الدولي، والعاملين في مجال العلاقات الدولية: أن إنشاء علاقات دبلوماسية بين بلدين– من خلال إقامة السفارات الدائمة بينهما – يعتبر دليلاً على إرادة هذين البلدين للتعايش فيما بينهما على أساس من السلام والعلاقات الودية، كما أن سحب السفراء، أو عدم قبولهم، أو إلغاء وتجميد عمل السفارات، يُعد مؤشراً على عدم إرادة مثل هذه العلاقات، وربما تصل الأمور إلى إعلان الحرب... الخ. [2] .

والدولة الإسلامية ليست منغلقة على نفسها بل تسعى للتعايش مع الآخرين من خلال بعث السفراء لتوضيح مبادئ الدين الإسلامي ؛ إذ يعدّ هذا من أهم الأمور التي يسعى الإسلام إلى تحقيقها من خلال السفارة ؛ ليتحقق التعايش مع الآخرين وفق تلك المبادئ؛ ومما يدل على ذلك قوله –

١– الأم ، محمد بن إدريس الشافعي ، دار المعرفة – بيروت ، بدون طبعة ، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م ، ٤/٢٠٠ .

٢– ينظر : مقال (من مقاصد سفارة النبي صلى الله عليه وسلم) ، د. أحمد غالب الخطيب ، مرجع سابق .

صلّى الله عليه وسلّم– لقيصر الروم : " فإن توليت فإن عليك إثم الأريْسيين " ؛ ففي الحديث دلالة على تعليم النبي – صلّى الله عليه وسلّم – وإرشاده لهرقل إلى أن من يتولى عن استماع الحق فهو آثم، وهذا بلاشك توضيح لمبادئ هذا الدين العظيم.

❁❁❁❁

المطلب الثالث : مواصفات السفير [1] :

عند التمعن في دراسة سِيَر السفراء الذين أرسلهم النبي – صلّى الله عليه وسلّم –نجد أنهم يشتركون في مجموعة من المواصفات يمكن أن تكون معياراً ثابتاً لاختيار سفراء الدول ، ومن أبرز تلك الصفات :

١– **الإيمان المطلَق بالقضية** : لأن فاقد الشيء لا يُعطيه؛ لذلك فقد كان مَنْ اختِيرَ من السفراء من أصحاب السبق في الإسلام، وممن لهم مواقفُ متميزة، ومَشاهدُ لنصرة دولة الإسلام، فعلى سبيل المثال فإن حاطب بن أبي بلتعة – رضي الله عنه– كان ممن شهد بدرًا ، وعبدالله بن حذافة السهمي – رضي الله عنه – ممن هاجر إلى الحبشة ، وشهد غزوة أحُد.

ولقد كان هؤلاء السفراء يعلمون يَقيناً أن هذه المهمات الموكلة إليهم تحفها المخاطر ، وقد تؤدي إلى الموت والهلاك ، إلا أنهم ورغم ذلك كانوا على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل قضيتهم، وبالفعل فقد قدم السفير الحارث بن عمير الأزديُّ – رضي الله عنه– حياته من أجل هذه المهمة ؛ حيث عَرضَ له شُرَحْبِيل بن عمرو الغسَّاني فأوثقه رباطًا، وضرب عنقه.

١– راجع: مواصفات السفراء في السياسة الإسلامية ، عبدالستار المرسومي ، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية العالمية .

٢- **العلم والحكمة** : فالسفير حين لا يَكون عالِماً بما هو ذاهب ليدعو إليه، فسيكون مِعول هدمٍ لقضيته من حيثُ لا يشعر، ولقد كان السفراء المسلمون أصحابَ علم ودينٍ وحكمة، ونضرب هنا مَثلاً بالعَلاء بن الحضرمي – رضي الله عنه – حين قَدِم على المنذر بن ساوى فقال له : يا منذرُ، إنك عظيمُ العقل في الدنيا، فلا تَصغُرنَّ عن الآخرة ، إنَّ هذه المجوسية شرُّ دين ليس فيها تكرم العرب، ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يُستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكرَّم على أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة، ولستَ بعديم عقلٍ ولا رأي ، فانظر هل يَنبغي لمن لا يكذب أن لا تُصدقه، ولمن لا يخون أن لا تأمنه، ولمن لا يخلف أن لا تثق به ؛ فإن كان هذا هكذا، فهو هذا النبي الأمي الذي والله لا يَستطيع ذو عقل أن يقول: ليتَ ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليت زاد في عفوِه أو نقَص من عقابه! إن كان ذلك منه على أمنية أهل العقل وفِكر أهل البصر.

فقال المنذر: قد نظرت في هذا الأمر الذي في يدي، فوجدتُه للدنيا دون الآخرة، ونظرتُ في دينكم فوجدتُه للآخرة والدنيا، فما يَمنعني من قَبول دينٍ فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبتُ أمسِ ممن يَقبله وعجبتُ اليوم ممن يردُّه، وإن من إعظام مَن جاء به أن يعظم رسوله وسأنظر" [1] ، ثم أسلم المنذرُ على إثر ذلك وحَسُن إسلامه.

٣- **الشجاعة والصبر**: فالمكلف بمثل هذه المهامِّ لا بد أن يتمتع بشجاعة فائقة، وصبرٍ عظيم، وعزمٍ لا يَلين؛ لأنه سيَلتقي بالملوك ذَوي القوة،

١- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، عبد الرحمن بن عبد الله ، تح: عمر عبد السلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، ٧/ ٥١٥ .

والساسة من ذوي البأس، ممن يَحتاج في لقائهم إلى رباطة الجأش، وخاصة إذا كانت هناك تكليفات ترتبط بالجوانب العسكرية بين بلده والبلد التي يعمل بها، أو لربما كلّف بمهام من قبل دولته تحتاج إلى تفقد مشاريع أو برامج تنفذها الدولة بالتعاون مع الدولة التي يعمل بها؛ فيحتاج إلى قطع مسافات طويلة للإشراف والوقوف على تطورات تلك المشاريع والبرامج ؛ لذلك فمن لم يكن شجاعاً وصَبوراً فلا يمكن أن يُباشر هذه المهمة ، ولقد كان جميع السفراء يَمتلكون هذه الصفات؛ لأنهم مجرِّبون، ومَرُّوا بمواقفَ أثبتوا شجاعتهم وثباتهم.

٤- **الدهاء واللباقة وحضور البديهة** : فقد عُرف عن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – بأنه من دهاة العرب، إن لم يكن داهية العرب الأول، وكان عمرُو بن أمية الضَّمري –رضي الله عنه– لبقًا ذكيًّا، وكذا باقي السفراء؛ لأنّ المهمة الموكلة إليهم تحتاج إلى الدهاء وحضور البديهة.

لقد تعرَّض حاطب بن أبي بلتعة – رضي الله عنه– إلى مثل هذا الموقف؛ فقد سأله المقوقس عن النبي محمد – صلّى الله عليه وسلّم– ، فيحدِّث حاطبٌ – رضي الله عنه– فيقول:" بعثَني رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، قال: فحيَّيتُه بكتاب رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– ، فأنزلني في منزله وأقمتُ عنده ، ثم بعث إليَّ وقد جمع بَطارقته ، فقال : إني سأكلِّمك بكلام، وأحبُّ أن تفهمه مني، قال: قلت: هلُمّ، قال: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيًّا؟ قلت: بلى، هو رسول الله ، قال: فما له حيث كان هكذا لم يَدعُ على قومه حيث أخرَجوه من بلده إلى غيرها ؟ قال: فقلتُ: عيسى ابن مريم أليس تَشهد أنه رسول الله؟ فما له حيث أخَذه قومه فأرادوا أن يَغلبوه ألاَّ يكون دَعا عليهم بأن يُهلكهم الله –

عزّ وجلّ – حتى رفعه الله إليه في السماء الدنيا؟! قال: أنت حكيمٌ جاء مِن عند حكيم" [1] .

٥- **المظهر اللائق وجمال الشكل** : وربما اختصت متطلَّبات هذه المهمة بهذا الأمر حصراً ؛ لأن الإسلام في الأصل لا ينظر إلى شكل الإنسان، ولكن ينظر إلى قلبه وعمله وجوهره، ولكن في بعض المهمات يحتاج الأمر إلى ذلك من باب : (حدِّثوا الناس بما يعرفون) ، وهي قاعدة بليغة في السياسات الخارجية .

لقد كان الكثير من سفراء الدولة الإسلامية على درجة من الجمال والأناقة والوسامة، ومنهم دحية الكلبي – رضي الله عنه – ؛ فقد كان من جماله أن جبريل – عليه السلام – كان يأتي النبيَّ – صلّى الله عليه وسلّم – بصورته ؛ فعن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها– أنها قالت : " رَأَيْتُ رَجُلًا يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَلَى صُورَةِ دِحْيَةَ ابْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَلَى دَابَّةٍ يُنَاجِي رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ قَدْ أَسْدَلَهَا عَلَيْهِ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " فَإِنَّ ذَلِكَ جِبْرِيلُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – أَمَرَنِي أَنْ أَخْرُجَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ " [2] .

وأما جرير بن عبدالله البجلي – رضي الله عنه – فلم يكن أقلَّ جمالاً؛ فعن "جرير بن عبدالله قال: لما قدمتُ المدينة والنبي – صلّى الله عليه

١- ينظر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، أحمد بن الحسين البيهقي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ ، باب ما جاء في كتاب النبي – صلّى الله عليه وسلّم – إلى المقوقس ، ٣٩٦/٤ ، و السيرة الحلبية ، مرجع سابق ، ٣٥٠/٣ .

٢- (أخرجه الحاكم في مستدركه) راجع : المستدرك على الصحيحين ، مرجع سابق ، كتاب (اللباس) حديث رقم (٧٤١٢) ، ٢١٤/٤ . وقال الحاكم : " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ " ، ووافقه الذهبي .

وسلّم- يخطب، إِذْ عَرَضَ لَهُ فِي خُطْبَتِهِ وَقَالَ: " يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَابِ، أَوْ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ، إِلَّا أَنَّ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةَ مَلَكٍ " قَالَ جَرِيرٌ: " فَحَمِدْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا أَبْلَانِي " [1] .

وكان المسلمون يقارنون بين جرير بن عبدالله البجلي ، وبين دحية الكلبي – رضي الله عنهما- في الجمال؛ فهذا عوانة بن الحكم يُسأل: أجمل الناس جرير بن عبدالله؟ فقال: بل أجمل الناس مَن ينزل جبريلُ على صورته؛ يعني: دحية الكلبي – رضي الله عنهم- أجمعين.

٦-**الكفاءة** : من الملاحظ أنّ النبي- صلّى الله عليه وسلّم – لم يحدد سفراءه من قبيلة واحدة ، أو من بيتٍ واحد، بل نوَّع بينهم، وكأنه اختار من كل بطن ، أو من كل قبيلة واحداً ، كما يلحظ أنه لم يكن من بين هؤلاء السفراء أحدٌ قرابته من بني هاشم ؛ وفي ذلك دلالات سياسية عظيمة بأن رئيس الدولة يُعيِّن سفراءه على أساس الكفاءة والنوعية وملائمة المهارات ، وليس على أساس القَرابة والنسب.

ومن خلال الاختيار الأمثل للسفراء تتحقق رؤية الدولة في توطيد علاقاتها الدولية مع الدول الأخرى بما يعود بالنفع العميم على الدول وشعوبها ، فيتعايشون بسلام واطمئنان ، ويرفلون بنعمة الأمن والأمان ، فيتحقق الرخاء والازدهار في ربوع الأرض والكون ، وهو ما تهدف إليه تعاليم هذا الدين الحنيف .

❁❁❁❁

١- (أخرجه أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه) ، راجع : مسند أحمد ، مرجع سابق ، حديث رقم (١٩١٨٠) ، ٥١٦/٣١ ، والمستدرك على الصحيحين ، مرجع سابق ، حديث رقم (١٠٥٣) ، ٤٢٢/١ ، وقال الحاكم : " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ " ، ووافقه الذهبي .

الخاتمة

أحمد الله – تعالى – حمد الشاكرين على توفيقه وتفضُّله بأن منَّ عليَّ بدراسة هذا الموضوع المهم ؛ فلولا فضله وإحسانه ، وتوفيقه وامتنانه ، لما تمَّ هذا العمل ، وأُصلِّي وأُسلِّم على خير رُسلِه أجمعين سيِّدنا ونبيِّنا محمد المَبعُوث رحمةً للعالمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد :

فخلاصة ما تَوصَّلْتُ إليه بعد الدراسة والبحث في موضوع " السفراء في الإسلام " الأمور الآتية :

١. أن للسفراء أهمية بالغة في توطيد العلاقات الدولية بين دولهم والدول التي كُلّفوا بالتمثيل الدبلوماسي فيها .
٢. ارتباط المعنى اللغوي للسفير بالمعنى الاصطلاحي من الناحية العملية ؛ إذ يراد بالسفير لغة الإصلاح ؛ وهو ما يقوم به السفراء من توطيد لعلاقات بلدانهم مع البلدان التي أرسلوا إليها ، والعمل على تنقية الأجواء بين البلدين ، وإزالة كل ما قد يشوب العلاقات الثنائية بين بلدانهم والبلدان الأخرى .
٣. أن السيرة النبوية ، ومواقف النبي – صلّى الله عليه وسلّم – زاخرة في التأكيد على تأصيل عمل السفير وشرعيته منذ بزوغ فجر الإسلام سابقة بذلك القوانين الدولية المعاصرة .
٤. أن مبادئ الإسلام قد أقرت حقوقاً كثيرة للسفير منها:(حرية العقيدة والعبادة ، المعاملة الحسنة ، حرية التنقل ، الحصانة الدبلوماسية) .

٥. أثبتت مكاتبات النبي – صلّى الله عليه وسلّم – لملوك وأمراء الدول المجاورة للمدينة المنورة عالمية الرسالة المحمدية ، وامتيازها بمنهجية فريدة في التعامل مع الدول والشعوب غير المسلمة .

٦. أن من أهم المقاصد من وراء إرساله – صلّى الله عليه وسلّم – السفراء إلى الملوك والأمراء : تحقيق الاعتراف بالدولة المسلمة، وتوقيع الصلح والمعاهدات، والتعايش السلمي مع الآخرين .

٧. أنه لابد من توفر صفات عديدة للسفير منها : الإيمان المطلَق بالقضية، العلم والحكمة ، والشجاعة والصبر ، الدهاء واللباقة وحضور البديهة ، المظهر اللائق وجمال الشكل ، والكفاءة .

ومما أوصي به في ختام هذا البحث :

طرح مساقات وتخصصات في الكليات والجامعات الشرعية تعنى بإعداد باحثين في المقارنات الشرعية والقانونية المعاصرة ، وإبراز المواقف التي سبق بها الإسلام القوانين الدولية ؛ وذلك لبيان التميز الحضاري للإسلام والمسلمين، وأسبقيتهم في إرساء مبادئ العلاقات الدولية .

ولا يسعني في الختام إلا أن أسأل الله – تعالى– أن يتقبَّل منِّي هذا الجهد ، و يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يَنْفع به كلَّ قارئٍ أو مطَّلِعٍ ، ويتجاوز عنّي إن حصلَ منّي قصورٌ أو زلَل إنَّه سميعٌ مجيبٌ ، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّد الوَرَى ، وإمامُ أهل التُّقَى نبيِّنا مُحمَّدٍ وعلى آله وأصحابه ، ومن سار على دربهم واقتفى .

فهرس المصادر والمراجع

- أحكام الرسل والسفراء في الفقه الإسلامي ، جمال نجم ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح ، نابلس .
- الأم ، محمد بن إدريس الشافعي ، دار المعرفة – بيروت ، بدون طبعة ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، أحمد بن الحسين البيهقي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ .
- الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، دار الهلال – بيروت ، ط ١ .
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ، تح: عمر عبد السلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، تح: عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .

- السياسة الخارجية في السنة النبوية ، ميساء روابدة وعزيزة عليوة ، بحث محكم في مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والقانونية ، المجلد ١٢ ، العدد ٢ .
- السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) ، علي بن إبراهيم الحلبي، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٧هـ .
- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط١ ، ١٤٢٢هـ .
- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ.
- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي ، تح: يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية – الدار النموذجية ، بيروت – صيدا ، ط ٥ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
- المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري ، تح : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م .
- مسند أحمد ، أحمد بن محمد بن حنبل ، تح : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون بإشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .
- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس القزويني الرازي، تح : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) ، دار الدعوة ، القاهرة .
- المغني، عبد الله بن أحمد بن قدامة ، دار الكتاب العربي – بيروت، بدون طبعة.
- **البحوث والمقالات والمواقع على الشبكة العنكبوتية العالمية :**
- (اتفاقية فيينا) اتفاقية في العمل الدبلوماسي منشورة على الشبكة العنكبوتية العالمية.
- (من مقاصد سفارة النبي صلى الله عليه وسلم) ، د. أحمد غالب الخطيب ، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية العالمية .
- مواصفات السفراء في السياسة الإسلامية ، عبدالستار المرسومي ، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية العالمية .